ألطّيّب غنايم (*)

كتاب مُشرع على الأسئلة

(قراءة في كتاب حول حملة الاحتجاج الاجتماعي)

(*) صحافي فلسطيني يكتب باللغتين العربية والعبرية- باقة الغربية.

(*) اسم الكتاب: «قراءة الاحتجاج: قاموس سياسيّ [٢٠١١-]»

(*) محرّر رئيس: أريئيل هندل

(*) محرّرون: أودي إدلمان، ميخال جفعوني، نوعم يرون، يوآف كاني

(*) إصدار: دار نشر "هكيبوتس همئوحاد" (الكيبوتس الموحّد) - سلسلة "كاف أدوم" (خطّ أحمر)، جامعة تل أبيب، مركز منيرفا للآداب، ٢٠١٢

أسئلة كثيرة خَلَقَتْهَا وخَلَّفَتْهَا حركةُ الاحتجاج الإسرائيليّة، التي نَشَأَت وتَنَامت بتسارع كبير في صيف العام ٢٠١١، لأشهر معدودة فقط، قَلْقَلَت المناخ السّياسيّ والحراكَ الاجتماعيّ إلى حَدٍّ كبير. حركة طوتها المؤسّسة الإسرائيليّة، أم أنّها حركة سرعان ما ذَوَت لأسباب كثيرة، اجتماعيّة، سياسيّة، اقتصاديّة وأكثر من ذلك؟ هذه الحركة الاحتجاجيّة لم تخرج من رحم الأيديولوجيا، وإنّما من ضائقة شابّة يهوديّة إسرائيليّة، تُدْعَى دافني ليف، إذ بحثت عن شقّة للإيجار في مدينة تل- أبيب، ولاقت صعوبة كبيرة في الأمر، بسبب ارتفاع أسعار الشقق في إسرائيل عامّة، وفي مدينة تل- أبيب خاصّة. ألقت دافني حجرًا في بحر الفيسبوك، حجر احتجاج، سرعان ما لاقت ارتداداته أصداءً لم تكن بالحسبان بتاتًا. كرة ثلج وتدحرجت. خرقت هذه المجموعة الفيسبوكيّة كلّ التّوقّعات وباشرت المجموعات المختلفة تتجمّع في خِيَم نصبتها في جادة روتشيلد في مدينة تل- أبيب، من بين المطالب الرّئيسة لها، كان جسر الهوّات الطّبقيّة الشّاسعة الموجودة في المجتمع الإسرائيليّ الرّاهن، خفض أسعار الشّقق للأزواج الشّابة – وهي ضائقة آخذة في الاتّساع والتّغلغل أكثر وأكثر في أوساط شرائح الطّبقة الوسطى، ناهيك عن خفض مجمل أسعار البضائع خصوصًا الغذاء والملابس الإسرائيليّة، التي تُعْتَبَرُ باهظة الثّمن مقارنةً مع معدل دّخل الفرد الواحد.

أنشأت حكومة بنيامين نتنياهو، بعد أن تأكّدت من عدم إمكانيّة تجاهل هذه الظّاهرة، الآخذة في التّوسّع والتّعمق، لجنة تُدْعَى لجنة تراختنبرغ، على اسم خبير الاقتصاد الإسرائيليّ، مانويل تراختنبرغ. أوصَت اللجنة بعدّة توصيات في نهاية بحثها، لكنّها، حتّى اللحظة، بعيدة عن تحقيقها. هل كانت هذه اللجنة، مجرّد مناورة لكسب الوقت من نتنياهو، المنتهج سياسة رأسماليّة نيو- ليبراليّة لا تقترب من مطالب هؤلاء الشّباب والصّبايا؟

أسئلة كثيرة، ولّدتها هذه المسألة، التي يجب التّنويه، إلى كونها استقَت الكثير من الثورات العربية، واستوحته من الثّورات العربيّة المحيطة بدولة إسرائيل؛ من اسمها، إلى ديناميكيّتها، إلى محاولة تنظيم مليونيّة بالضّبط كما في مصر، مرورًا باقتباس شعار «الشّعب يريد إسقاط النّظام».

«من بدايتها، تبلورت العلاقات بين السّلطة وبين حركة الاحتجاج المدنيّة التي نَشَأَت في إسرائيل، صيفَ ٢٠١١، على شاكلة ضِدَّيْنِ أساسيّين. أوّلاً، حاول النّظام أن يرسم المحتجيّن كغير واعين لمبتغاهم، بينما ادّعى النّاشطون والمحتجّون أنّ سبب الاحتجاج واضح جدًا، حتّى لو لم يتكلّم المحتجّون بصوتٍ واحد. ثانيًا، ادّعت السلطة الحاكمة أنّ محرّك الاحتجاج هو دوافع سياسيّة، في الوقت الذي شَدَّدَ فيه المحتجّون على عدم سياسيّة نشاطاتهم. تبدو ادّعاءات الطّرفين إشكاليّةً. من طرف السّلطة، إذا كان الاحتجاج حقًّا يصبّ في خدمة أهداف وغايات سياسيّة، فكيف إذًن يمكن الادّعاء أنّه عديم الاتّجاه؟ أيضًا مواقف المحتجّين اتّسمت بعدم منهجيّة: إذا كان الاحتجاج غير سياسيّ، وفق ادّعائهم، فكيف يمكن التّطرّق إليه كحركة مدنيّة ضديّة تطالب بتغيير كبير في مجمل الأُمور؟»

هكذا يفتتح المحرّرون قاموسهم في المقدّمة، في توضيح أهدافهم من وراء إصدار قاموس للمصطلحات السّياسيّة النّاتجة/ النّابعة/ المتولّدة/ المنبثة/ المستقاة من الحركة الاحتجاجيّة. يجب التّنويه إلى أنّ كتّاب المصطلحات أو المحرّرين بالأحرى، حينما حدّدوا فترة الحركة الاحتجاجيّة في عنوان الكتاب/ القاموس كتبوا [٢٠١١–]، أي أنّهم اعتبروا الاحتجاج ساريًا وقائمًا حتّى اليوم، أو لربّما هي مصطلحاته التي ظلّت بعد ذوبان الحركة الاحتجاجيّة. سنرى الجواب عَبْرَ الكتاب وتقصّي المصطلحات التي دخلته.

إن تأليف قاموس سياسيّ عن حركة سياسيّة، نشأت قبل عام واحد فقط من الإصدار، فيه نوع من التّحدّي، وذلك بمفهوم أنّ الحركة الاحتجاجيّة ومخلّفاتها ما زالت قيد التّطوّر والإنشاء والتكوّن، وهي حركة راهنة في الخطاب السّياسيّ الاجتماعيّ المدنيّ المعاصر، فكيف يمكن الكتابة عن شيء في مراحله الأُولى، على الرّغم من الوعي أنّ شكل الاحتجاج ومآلاته غير معروفة سلفًا. هل يمكننا اعتبار قاموس من هذا القبيل، نوعًا من التّوثيق للمرحلة، وإن كانت لم تنته بعد؟

تطرح المقدّمة أوّل ما تطرح قضيّة التّناقض البادية بين السّلطة الحاكمة وبين الحركة الاحتجاجيّة، وهو فعلاً ما حاولت الحركة الاحتجاجيّة التّشديد عليه، خوفًا من اتّهامها بالتّسييس وبالمَآرب السّياسيّة (والشّخصيّة أيضًا) وخوفًا من القضاء على مطالبها في حال الجلوس للتفاهم مع السّلطة الحاكمة، برئاسة بنيامين نتنياهو. بينما حاولت حكومة نتنياهو، في تصريحاتها، بياناتها، خطاباتها ولجنة تراختنبرغ خاصّتها، أنّ تحتوي الإشكاليّة الجديدة، خوفًا من الدّخول إلى أزمة جادّة، وعليه، حاول نتنياهو الرأسماليّ

اليمينيّ أن يظهر بمظهر الدّاعم لهذه الحركة، والسّاعي لتحقيق كافّة أهدافها. من هذه الجدليّة نما خطابُ اتّهامات متراشقة بين الطّرفين، وأيضًا اتّهامات داخليّة، فعلى سبيل المثال يمكننا أن نتعامل مع اعتراض قسم من المحتجّين بالجلوس مع تراختنبرغ لأنّه من طرف الحكومة.

«ادّعى النّاطقون بلسان السّلطة بأن المحتجين يعملون بالخفاء لصالح اليسار، وبهذا الشّكل حاولوا التّشكيك بالاحتجاج وبإضعافه. جاء تصريح المحتجين بأن الاحتجاج غير سياسيّ، بالأساس لصدّ هذه الادّعاءات وللتوضيح بأنّ الحديث يدور حول احتجاج جماهيريّ عفويّ لا تنظّمه هيئة حزبيّة معيّنة.

«لكن هذا الادّعاء – «الاحتجاج غير سياسيّ» – يملك مفهومًا أكثر عمقًا وأكثر احتجاجًا. ادّعى المحتجّون أنّ السّياسة البرلمانيّة في إسرائيل، عمليًّا، غير قادرة على احتواء مطالبهم وضائقاتهم، وأنّ أحزاب اليمين، الوسط واليسار غير مكترثة بالأسئلة الجوهريّة الخاصّة بحياة الجماهير. حينما ادّعوا أنّ الاحتجاج غير سياسيّ كشفوا عمليًّا شكل العمق الخاصّ بالسّياسة في إسرائيل، وأشاروا إلى العمى والتّقوقع الذي يميّز السّياسة المُمَأْسَسَة، والتي صارت في إسرائيل كلمة مرادفة للسياسة ذاتها».

«حينما اختار المحتجّون أن يَتَّسِمَ احتجاجهم بعدم- السياسيّة، فقد صَرّحُوا عمليًّا أنّ السّياسة القائمة في إسرائيل غير سياسيّة بما فيه الكفاية. وفي رفضهم لعالم المصطلحات القائم، مارسوا أكثر عمل سياسيّ أساسيّ وجوهريّ: عرض السّياسة ذاتها على أنها سؤال مفتوح، كمجال لا يمكن، ولا يجب أن يحسم مسبقًا محتوياته، حيّز مخترق من النّقاش والصّراع. على هذه الخلفيّة يتّضح ادّعاء السّلطة الحاكمة بأنّ المحتجين غير واعين لمبتغاهم: على ما يبدو فإن السلطة السياسية بالفعل غير قادرة على أن تساوم في احتجاج غير مصاغ بمصطلحات اللعبة السّياسيّة، حيث تستخدم لغة أخرى من تلك المميزة للمساومات التي تقوم بها» («ماذا يريدون؟ أن نشتري لهم شققا في روتشيلد؟»).

في السّطور السّابقة، المُقْتَبَسَة من مقدّمة القاموس، نقف عمليًّا على جوهر الإشكاليّات التي اعترت الحركة الاحتجاجيّة الإسرائيليّة وسياقها، وندرك بعمق أكبر التّنافرات التي احتواها المشهد الاحتجاجيّ، ما بين السّلطة (وكل ما يمثّلها)، وما بين المحتجّين. هل فعلاً نَجَحَت هذه الحركة الاحتجاجيّة، حديثة العهد، بخلق قاموس جديد، غير موجود في قاموس السّلطة الحاكمة. إذا كان الجواب إيجابيًّا، فيمكننا فقط أن نتخيَّلَ مدى الهوّة الشّاسعة بين الطّبقة الوسطى (هل هُمِّشَت الطّبقة المسحوقة على حساب الطّبقة الوسطى؟) وبين السّلطة الحاكمة. أسئلة هذا الاحتجاج كثيرة ومتشعّبة، ليس بسبب الاحتجاج ذاته فقط، وإنّما بسبب المرحلة، السّياق، الحقبة التّاريخيّة والمفترق الحادّ الذي تقف عليه إسرائيل في ظلّ حكومات اليمين المتتالية في السّنوات الأخيرة.

«يسعى قاموس الاحتجاج لمواصلة تكثيف الصّنعة التي بَدَأَت في صيف ٢٠١١. لا تعرض المقالات ولا التّمثيلات في الكتاب سلّم أولويّات سياسيًّا – أو على الأقلّ، ليس هذا هو الأمر المركزيّ الذي تضعه في المقدّمة – بل إنّها تطوّر مصطلحات بإمكانها منحَ أساس أكثر متانة للغة وللاندماج السّياسيّ من نوع جديد. يختبر القاموس مصطلحات معروفة، قد تَفَتَّقَت مفاهيمها السّائدة وتزعزعت في أعقاب الاحتجاج. يعرض تعريفات جديدة لمصطلحات قديمة ويطرح إدخال مصطلحات جديدة إلى القاموس السّياسيّ، من شأنها أن تلقي الضّوء على ظواهر لا تزال في أحيان كثيرة مستترة في الخطاب السّياسيّ القائم. يهدف القاموس إلى استخلاص لبنات أساسيّة من الخطاب السّياسيّ الذي نَشَأَ خلال وفي أعقاب الاحتجاج المَدَنيّ في الصّيف الماضي، لبنات أساسيّة متوقّعة أكثر، ومتوقّعة أقلّ، تمكّن من مواصلة توسيع الخيال السّياسيّ ومجال النّضال المَدَنِيّ».

بكلمات أُخرى، يهدف تأليف هذا القاموس إلى نَبش الخطاب السّياسيّ الإسرائيليّ الرّاهن، متّخذًا من حركة احتجاج صيف ٢٠١١ رافعةً لنموذج تحليل الخطاب، أي اختبار مدى فضفاضيّة أو ضيق «ثوب السّياسة»، هل يمكن خلق لغة سياسيّة جديدة في ظلّ السّلطة الحاكمة؟ هل يمكن التّعدّي على «القاموس الرّسمي»، أخذ مصطلحاته ومنحها تأويلات ومفاهيم جديدة؟ هذا ما يسعى إليه القاموس متّجهًا نحو الخطاب الرّسميّ محاولاً تقويضه بمنحه مناحيَ جديدة، يبدو أنّ السّلطة وإن فهمتها، فهي غير معنيّة بتبّنيها.

يوضح المحرّرون في المقدّمة أنّ الاحتجاج مختلف المنابع والمشارب والمذاهب وانتقائيّ، وأنّه لا مركزيّ، فلا قيادةَ واحدة لهذي الجموع، بل أطياف ومجموعات وأفراد وإفرازات اجتماعيّة كثيرة، وكذلك الأمر هم مؤلّفو المصطلحات في القاموس، ينتمون إلى حقول معرفيّة مختلفة، مذاهب متنوّعة، مدارس أدبيّة، فنيّة وأكاديميّة غير متشابهة، وبذلك تكون الصّورة في القاموس أكثر شموليّة، وكما يقول المحرّرون في المقدّمة «فكر وبحث يلتزمان فهم السّياسة كما هي بالفعل، عليهما أن يكونا، على الأقلّ وإلى حدّ ما، تجريبيين».

توضح المقدّمة كثيرًا مدى تجريبيّة هذا القاموس، إذ تفسّر مفهومها للاحتجاج، ومحاجّتها للمفاهيم السّائدة، مدى التّرابط بين الأفكار المختلفة، وإمكانيّة توسيع «ثوب» مصطلح السّياسة عبر تبنّي مفاهيم جديدة للمصطلحات القائمة، وعبر إدخال مصطلحات

جديدة، قد تبدو هامشيّة، غير مهذّبة، جارحة، متمرّدة وغير لائقة لما هو متعارف عليه.

إذن، أيّ مصطلحات ضمّ قاموس الاحتجاج هذا؟

مصطلحات، غير مألوفة، تغريبيّة:

خيمة / خِيَم / أُمّة / مسؤوليّة / نحن / المفكّرون / اجتماع / ناشطة ميدانيّة سياسيّة / بيت / بيت الشّعب / حدود الاحتجاج / عولمة الغضب / مسكن / مسكن جماهيريّ / ديمقراطيّة نقاشيّة / ديمقراطيّة عالميّة / تحرّش في الشّارع / غياب / غياب القضاء / جموع غفيرة / خصخصة / لجان / مسنُّون / حكمة الجماهير / انعدام البيت / تايكون / تمثيل / شارع / احتلال / رغيف خبز / فشل / لفينسكي / خبز / ثورة / ثورة برجوازيّة / مختصّون / غير الموجودين / ملجأ / راحة / طبقة وسطى / حيّز عامّ / حيّز جماهيريّ / لعبة أطفال / مستوطنون / كَرَم / سلاح تدمير اقتصاديّ / نظام / تضامن / سوشي / فقر / ثراء / مدينة / صحافة اقتصاديّة / ما فوق- البيتيّ / شعب / الشّعب / سياسيّ / ضواحي – ريف / عدل اجتماعيّ / براز – خراء / سخرية / تعاون / شيوعيّة / صيف / شارع / شبكة اجتماعيّة / جادة / طاولة مستديرة / أسود/أبيض / يسار / فرحة / وعي / منافسة / رغبة.

هذه بالضّبط مصطلحات القاموس الثّلاثة والسّبعون، ترجمتُهَا وفق تسلسلها الأبجديّ العبريّ. قد تبدو لمن يعرف القواميس العاديّة، غريبةً جدًا، لكن، كما ذكرتُ فإنّ اختيار إطار القاموس، لهكذا مصطلحات «بديلة»، جاء لزعزعة الإطار ولقلب ومضامينه. أليس هذا بعمل سياسيّ؟ نبشٌ في الخطاب السّياسيّ ومحتوياته ومحدوديته.

كيف يعرّف القاموس مصطلح الاحتلال (كيبوش)، مصطلح كَتَبَهُ أريئيل هندل، باحث متفرّغ (منحة ما بعد الدكتوراه) في معهد ترومان، الجامعة العبريّة، وزميل باحث في مركز منيرفا للعلوم الإنسانيّة في جامعة تل- أبيب:

«كان الاحتلال الحاضر الغائب في احتجاج صيف ٢٠١١. يبدو أن العديد من الأسس العميقة للاحتجاج تجلّت في التّوتّر القائم بين «الاحتلال» كمصطلح يُمْنَعُ التّحدّث حوله، أي كتمثيل «السّياسيّ» الذي هدّد بتقويض الاحتجاج من الدّاخل ومن الخارج، وبين الاحتلال العينيّ للحيّز الجماهيريّ في روتشيلد، في لفينسكي، في «جان هسوس» (حديقة الحصان) ولاحقًا في عشرات مقرّات الخيم في أنحاء البلاد» (ص ١٤٧).

تعامل هندل في تعريف مصطلح الاحتجاج من زاوية معيّنة، محدّدة ومغايرة: النّظر إلى الحيّز العامّ، والاحتجاج فيه – خاصّة المكوث المتواصل – بمصطلحات احتلال الحيّز العامّ، بمصطلحات الاستيطان. هذه الزّاوية المثيرة تُفهمنا أنّ الوعي الباطنيّ للجماعة الإسرائيليّة يتنكّر للاحتلال، لمصطلحاته، لتشبيهاته، لإسقاطاته، وعليه ينبذ كلّ ما هو آت منه، حتّى في مجال المصطلحات. يدّعي هندل أنّه لربّما بسبب يساريّة الاحتجاج، نوعًا ما، فقد كان لدى مشتركيها خوف كبير من مصطلح «استيطان» (استيطان الحيّز العامّ)، ناهيك عن أنّ الاحتجاج الإسرائيليّ هو الاحتجاج الوحيد في العالم الذي لا يدخل إلى قاموسه كلمة/ فعل احتلال – Occupation – Occupy .

يقول هندل إنّ خوف الاحتجاج من الاحتلال جعله مُحْتَلاً (اسم مفعول) من قبل ذاته، مقيّدًا، معتدلاً وغير مُخْتَرِقٍ.

مصطلح «غير الموجودين» هو مصطلح تمّ تعريفه بصريًا، أي خالٍ من الكلمات، بينما أربع صور فنيّة تشرح معنى هذا المصطلح/ الشّريحة: متشرّد في تل- أبيب يفترش الأرض، ينتظر صدقةً من عابري السّبيل، في مفترق طرق مركزيّ، وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه يتواجد وحيدًا، في هذه المنطقة الصّاخبة (تصوير يوآف شتاينمان). (ص ١٨٦- ١٩٠)

مصطلح «وعي» معرّف بصريًا، صورة فنيّة التقطت شعارات مرفوعة فوق خيمة، شعارات بالعبريّة، بالعربيّة، بالإنكليزيّة. الوعي هنا مأخوذ بصريًا من الحيّز العامّ للاحتجاج، من جادة روتشيلد وبيئتها، من أجواء تل- أبيب، من المشاركين، الوعي هنا متروك لاستنباط القارئ/ المتفرّج على الصّور، الذي يتوجّب عليه أن يعرف السّياق، كي يستكمل الصّورة، معرفة السّياق يمكن أن تأتي عبر قراءة المصطلحات. الصّور والنّصوص والمصطلحات في هذا القاموس البديل، مكمّلة واحدة للأُخرى، لتعطينا في نهاية المطاف فهمًا منقوصًا، لكنه واسع الرّؤيا، لمفهوم الإسرائيليّ للاحتجاج.

يمكن للقارئ أن يدوخ في متاهات مصطلحات الكتاب، التي تأخذنا من جهة إلى أقصاها، والتي تبدو كأنّها غير متناغمة، لكن هذا الأمر يبدو متعمّدًا من طاقم الكتّاب والمحرّرين، ليعكسوا الواقع الإسرائيليّ، الصّاخب، الحائر، الرأسماليّ والمُرْهَق. هذا القاموس البديل مغلّف بورق مقوّى خشن الملمس (هل يمكن للاحتجاج أن يكون ناعمًا؟)، بنيّ اللون، يختتم مصطلحاته، مصطلح "الرّغبة"، في صورة إيروسيّة لرجل وامرأة في لحظة رغبة، مصوّر غير بادي الملامح يلتقط صورة لهما، وهما منتصبان وسط الصّورة، غيوم متلبّدة من فوقهما، حميميّة وغرية تفوحان من هذه الصّورة التي تختتم الكتاب، وكأنّ الرّغبة في السّؤال، وفي الفهم وفي الإدراك المجتمعيّ/ السّياسيّ/ الاقتصاديّ/ الإنسانيّ/ الشّموليّ تظلّ هي العنوان.